

الدجال.. مقاربة واقعية

أ. بدر الشهري
باحث دكتوراة تربية

تحتل أحاديث الفتن مساحة مهمة من النصوص النبوية، فالفتن بعمومها قدر إلهي كوني، لذا كان البيان النبوي لها بياناً مستفيضاً، يقول البرزنجي: «فأكثر النبي صلى الله عليه وسلم من بيان أشراطها وأماراتها وما بين يديها من الفتن القريبة والبعيدة ليكون أهل كل قرن على حذر منها متهيئين لها... فأخبر النبي عن جميع الفتن والأشراط الكائنة قبلها فاسأل به خبيرا، فبلغ وبالغ وحذر أمته الفتن عموما والدجال خصوصاً»(١)

وأحاديث الفتن رغم أن فيها تخصيص بأزمان وأحوال وأشخاص، إلا أنها تتخذ غالباً أشكالاً من العمومية والتكرار، التي تدعو بطبيعتها إلى الاستعداد والاعتبار كما كان التوجيه النبوي عن سؤال متى الساعة، فقال عليه الصلاة والسلام: «ويلك ما أعددت لها»(٢)

وفي هذا يقول ابن كثير: «وإن كانت أشراط الساعة أعم من أن تكون بين يديها قريباً فإنها تكون مما يقع في الجملة ولو تقدم قبلها بدهر طويل»(٣)

وفتنة الدجال كأحد الفتن العظيمة التي جعلت الصحابة يهتمون لها ويكثرون السؤال عنها وعن تفاصيلها حتى يقول المغيرة بن شعبة: «ما سأل أحد النبي صلى الله عليه وسلم عن الدجال أكثر مما سألت، قال وما ينصبك منه»(٤). بمعنى أنهم قد وصلوا إلى حالة من النصب والاهتمام لشأنه، كما في حديث النواس بن سمعان الذي فيه ذِكر الدجال قال: «فلما رحنا إليه عرف ذلك فينا».

وفي تناولنا لفتنة الدجال محاولة لاستلهام بعض العبر التي يمكن الإفادة منها في الواقع الدعوي والتربوي، باعتبارها فتنة تتسم بالدجل والتلبيس وقلب الحقائق والذي يكون عادة مقروناً بالخوارق التي قد تدهش البعض، أو تخرق عادة الزمان أو الحدث، وهي على هذا الاعتبار فتنة متسعة زمانياً، ومتكررة واقعياً، يؤكد ذلك شيخ الإسلام بن تيمية رحمه الله فيقول: «وفتنة المسيح الدجال لا تختص بالموجودين في زمانه، بل حقيقة فتنته الباطل المخالف للشريعة، المقرون بالخوارق، فمن أقر بما يخالف الشريعة لخارق فقد أصابه نوع من هذه الفتنة»(٥)

ويمكن أن نتناول بعض الدروس من هذه الفتنة من النواحي التالية:

الفتن والإحساس المتيقظ:

في حديث النواس بن سمعان رضي الله عنه، قال: «ذكر رسول الله صلى الله عليه وسلم الدجال ذات غداة، فخفَض فيه ورفع، حتى ظننا ه في طائفة النخل، قال: غير الدجال أخوفني عليكم، فإن يخرج وأنا فيكم فأنا حجيجه دونكم، وإن يخرج ولست فيكم فامرؤٌ حجيج نفسه، والله خليفتي على كل مسلم»(٦)

الخشية من الفتن التي جعلت الصحابة يخافون من فتنة الدجال لشعورهم أنه قريب منهم، هي شأن الإحساس المتيقظ من الفتن، خاصة حين تكثر أشكالها ويعظم تأثيرها، فبعض الفتن لا تكتسب صعوبتها من نفسها بل بمَحِل تأثيرها في الانسان، وهذا ما جعل النبي صلى الله عليه وسلم يخفض في شأن الدجال ويرفع، فالفتنة قد تكون في ذاتها هينة، لكن حجم تأثيرها يختلف مقارنة بما يقابلها من مناعة معرفية وإيمانية «وإن يخرج ولست فيكم فامرؤ حجيج نفسه»، وتتضح أهمية الإحساس المتيقظ للفتن بشكل خاص في الفتن أو الأحداث التي تتصف بشيوع اللبس وعدم الوضوح واختلاط الأمور، سواء كان ذلك شكلاً طبيعياً أفرزته تلك الفتنة أو الحدث، أو شكلاً مصطنعاً أُريد له التعتيم والتظليل، فإن التأثر بها يكون بقدر القرب من مظانها أو الولوج في تفاصيلها أو بكثرة متابعتها، وفي الغالب يكون هذا التأثر خفياً متدرجاً أو موهماً بتبريرات مصلحية يتكشف وهنها مع الزمن .

الدجل بين التطويع والانتشار:

الدجل باعتباره فتنة تحمل صفة المخادعة والتلبيس والتغطية، تكمن خطورتها في حالة التباس الحق والباطل، فالمسيح الدجال يأتي القوم فيدعوهم فيستجيبون له ويؤمنون به، فيأمر السماء أن تمطر فتمطر... كل هذه الخوارق الخادعة تجعل البعض لا يعرف الحق من الباطل، وهكذا دجاجلة اليوم يملكون من أدوات التطويع ما يمكنهم من خداع الناس بضغطة زر، أو بمشهد مصطنع، أو بقدرة مزعومة، أو بكلمة يسيرة تضج بها وسائل التواصل، وفي حديث الدجال: «فعاث يميناً وعاث شمالاً» في تصويرٍ لمشهد من مشاهد إفساده، مع انتشار سريع لآثارٍ هذا الافساد: «فلا يجدون موضع شبرٍ إلا وقد ملأه زهمهم ونتنهم»، وهذه هي طبيعة الفتن الخداعة في تطويع أفكار الناس وانتشار الباطل بينهم .



الدجال وسورة الكهف:

ترتبط سورة الكهف بفتنة الدجال ارتباطاً وثيقاً من حيث مقاصدها في ترسيخ الحقائق أولاً، وفي الاعتصام من الفتن بشكل عام، كيف وهذه السورة احتوت على عرض لفتن الدين والمال والعلم والمُلك: «وهذه السورة الفريدة التي تحتوي على أكبر مادة وأغزرها فيما يتصل بفتن العهد الأخير التي يتزعمها الدجال ويتولى كبرها، والتي تحوي كذلك على أكبر مقدار من الترياق الذي يدفع سموم الدجال، ومن ثم فهي تهيء العقول والنفوس لمحاربة هذه الفتنة ومقاومتها، كما أن فيها روحاً تعارض التدجيل وزعمائه ومنهج تفكيرهم وخطة حياتهم في وضوح ودقة»(٧)

كما أن في هذه السورة إعمال للحلول في مواجهة الفتن، وهكذا في بعض الفتن التي لا يمكن أن تُقاوَم إلا باصطناع الكهوف التي تحمي الفتية المؤمنة، بما فيها من انعزالٍ محمود، قد يضطروا أن يخرجوا بورِقهم إلى المدينة، لكنهم يعلمون أنهم في حال اضطرار يلزمهم في زمن الفتنة إن يلزموا كهوفهم: «فقد تشتد الحال، ويضيق الخناق، ويستحيل الجمع بين الحياة والحرية، وبين الإيمان والعقيدة، فلا تبقى للمسلمين حيلة إلا الفرار من المجتمع واللجوء إلى العزلة، وتلك حال لا تعرض إلا في حقب متطاولة وأزمات نادرة»(٨)، يقول السعدي في معرض حديثه عن فوائد قصة أصحاب الكهف: «ومنها: الحث على التحرز والاستخفاء، والبعد عن مواقع الفتن في الدين، واستعمال الكتمان في ذلك على الانسان وعلى إخوانه في الدين»(٩)

ومن الحلول التي جاءت الإشارة إليها في سورة الكهف هو إلزام النفس بصحبة صالحة تشكل بيئة مقاومة للفتن، كما جاء التحذير من صرف البصر عنهم إلى ملذات الدنيا، وكأن ضغط الفتن وثقلها قد يصرف البعض إلى صحبة أخرى من صفاتها الغفلة واتباع الهوى: ﴿وَاصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَن ذِكْرِنَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ وَكَانَ أَمْرُهُ فُرُطًا﴾ الكهف/٢٨.

كذلك فإن الفتن والمحن تولد كهوفاً جديدة، تمثل حلولاً للفئة المؤمنة في استبقاء قوتها، وتعبئة أفرادها، وتجديد وسائلها: «فبينما هو كذلك إذ بعث الله المسيح بن مريم، فيطلب الدجال حتى يدركه فيقتله، ثم يأتي عيسى بن مريم قوم قد عصمهم الله منه، فيمسح عن وجوههم».

الفتن بين التهوين والتهويل:

ورد في أحاديث الدجال عددٌ من التوجيهات النبوية بعدم تهويل هذه الفتنة، كما في حديث المغيرة السابق: «وما ينصبك منه، إنه لا يضرك»، «هو أهون عند الله من ذلك»، ثم يكون التوجيه نحو العمل والمسؤولية الفردية في مثل: «يا عباد الله اثبتوا»، وقوله صلى الله عليه وسلم: «وإن يخرج ولست فيكم فامرؤٌ حجيج نفسه».

إن تهويل حال الفتنة حتى يكون مُقعِداً عن العمل، مستسلماً لخطاب التهويل تارة، أو للخطاب السكوني المتدثر بالأعذار تارة أخرى، مخالف لفقه التعامل مع الفتن، كما هو الحال مع تهوين الفتنة، ففي حديث الدجال: «لا يدان لك بقتالهم»، فالباطل عادة ما يمتلك أدوات التأثير التي لا يدان لنا بمواجهتها، ومن الحكمة والفقه أن نتحرر أحياناً من أوهام القوة أو القدرة التأثيرية التي لا يسعفها الواقع، لكن غربة الفتن وأحوال القصور مدعاة للعمل، مؤذنة بالفرج، والله سبحانه لا يضيع أجر من أحسن عملاً.

١) الإشاعة لأشراط الساعة/ محمد بن رسول الحسيني البرزنجي، ص ٢٥.

٢) صحيح البخاري.

٣) النهاية في الفتن والملاحم/ ابن كثير (١/ ٢٠).

٤) صحيح مسلم.

٥) السبعينية، مجموع الفتاوى (١٣٣/٥).

٦) صحيح مسلم.

٧) الصراع بين الإيمان والمادية: تأملات في سورة الكهف/ علي الحسني الندوي، ص ٩

٨) المصدر السابق، ص ٥١

٩) تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان/ عبد الرحمن ناصر السعدي، ص ٤٧٣.